الفصل الثالث:

تلقي الجنون في اللغة

اللغة سلطة.

اللغة تعترف بالجنون.

اللغة تصنف الجنون.

obeikandl.com

إن فكـرة التسـمية إذا كانـت اعترافاً بالـشيء ووجوده فإنهـا- من جهـة أخرى- انحراف عـن حقيقته وتنوعه في الواقـع، أو ما يمكن رصـده وتأمله على مسـتوى الذهن، إلى تمثلـه في الذهنيـة الثقافيـة مفهومـاً قـارّاً يتـم تعميمـه بنمطيـة بالغة على المسـتهلكين. ومن ثم يمكـن القول بأن اللغـة -من هذا الجانب- سـلطة تشريعيـة، لأنها تحمل في غضون التسـمية «تجربة الوعي بالـشيء»، والوعي بالشيء هو في محصلته النهائية: سلسـلة من أفعال الترميز والتأويل والتصنيف والإكراه...

الباحث

اللغة سلطة

اللغة -كما يقول رولان بارت[١]- سلطة تشريعية، واللسان قانونها؛ وقد لا نلحظ ذلك الوجود المتسلط؛ لأننا ننسى أن كل لسان تصنيف، وأن كل تصنيف ينطوي على قهر. وليس الكلام أو الخطاب تبليغاً -كما قد يُظنَّ- ولكنه توجيه وإخضاع معمان[٢]، لأنه منظومة مكونة من: مفردات، وعلاقات نحوية وبلاغية، وتراكيب وترميز: «تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم، وفي كيفية مفصلتهم له، وبالتالي في طريقة تفكيرهم، إننا نفكر كما نتكلّم، الشيء الذي يعني أن اللغة، التي تحدد قدرتنا على الكلام؛ هي نفسها التي تحدد قدرتنا على التفكير»[٣].

---

(١) ينظر: اللغة والسلطة، نص مترجم ضمن: دفاتر فلسفية: اللغة ٥، (نصوص مختارة)، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب - الدار البيضاء، ط٤، ٢٠٠٥م (ص١٠٤).

(٢) ينظر: اللغة والسلطة، نص مترجم ضمن: دفاتر فلسفية: اللغة ٥، (ص١٠٤).

(٣) هذا القانون ساقه د. محمد عابد الجابري بالترجمة عن آدم شاف، واعترض د. جورج طرابيشي على لفظة «التحديد» في تعليق الجابري لأنها تتعارض مع رأي شاف، الذي استخدم لفظة «تأثير» تخفيفاً لمبالغات المدرسة الألمانية، وتحاشياً لاستخدام لفظة «تحديد» التي هي -في رأيه- جبرية أكثر مما ينبغي.
راجع: د. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، دار الطليعة، لبنان - بيروت، =

وهنا تبرز العلاقة بين **اللغة**- بوصفها وسيطاً معرفيّاً- وبين **الذّات المدركة** وبين **عملية الإدراك** نفسها، فإذا كانت اللغة من حيث النشأة مقترنة بالذات/ لحظة الوعي الأولي/ الفردي ابتداء؛ كون «الإنسان سابق نوعاً ما على تاريخه وشروطه الاجتماعية التي تنبع منه»[١]، فإنها بعد ذلك تشكل قالباً إدراكياً صلداً يوجه التفكير، ويحدد أنماط الفهم تجاه الأشياء. أي: إن اللغة تكون **مكوَّناً** بالنظر إلى خضوعها إلى لحظة الوعي الفردي/ الأولي الذي يصنعها، وتكون **مكوِّناً** بالنظر إلى تأثيرها كـ: **عقل**/ ينشئ سلطة معرفية واجتماعية، تتحكم في رؤية الأشياء وفهمها؛ بصفتها جزءاً من المخزون الثقافي العام الذي **يعود إليه الأفراد، ويتحملونه**[٢] جزءاً من ثقافتهم عند ممارستهم لأنشطتهم

= ط٢، ت١٩٨٥م (ص٧٧)، وجورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي - نظرية العقل، دار الساقي، بيروت - لبنان، ط٢، ت ١٩٩٩م (ص١٢٧).

(١) تيري إيغلتون، دراسات نقدية عالمية (٢٩)، ترجمة: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ت ١٩٩٥م (ص١٠٦).

(٢) الباحث يستقطب هذا اللفظ بثقله الاصطلاحي من علم الحديث، حيث يستعمل في تلقي الحديث عن الشيخ بإحدى طرق التحمل الثمانية المعتبرة. وكذلك «يتحمل» مستخدمو اللغة «وعيها» بالأشياء وحساسيتها تجاهها، من خلال تلقيهم لها.

ينظر: مصطلح التحمل في علم الحديث، محمد صديق المنشاوي، قاموس مصطلحات الحديث النبوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، مصر - القاهرة، ط١، ت١٩٩٦م (ص٣٧) مصطلح (تحمل الحديث)، د. محمد أبو الليث الخيرآبادي، معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن - عمّان، ط١، ت١٤٢٩هـ-٢٠٠٩م (ص٣٣) مصطلح (تحمل الحديث) برقم (١٢١).

المعرفية والاجتماعية المختلفة، بغض النظر عن وجود الأشياء أنطولوجيّاً في العالم الخارجي. فالواقع ليس هو الموجود بالفعل، بل يتحقق في: القدرة على فهمه وتصوره في الذهن، ومن ثم فهو متعدد في الذهنيات الثقافية؛ تبعاً لتلقيه وللقدرة على فهمه. ولأن **تَعَقُّلِ الشّيءِ** (= الإدراك) ليس الشيء ذاته، بل يتحقق بـ«أن تُنتَزَعَ الصور في المواد عن موادّها، ويصير لها وجود آخر غير وجودها الأول»[١].

ولكي تكون هناك وقائع تستحق الوجود فـ«لا بدّ من وجود جهاز من المفردات، يمكن وصفها بها. ومن دون جهاز قبلي من المفردات، التي تصفها أو تنقلها إلى موقف ما، لا يمكن أن تكون هناك وقائع من أيِّ نوع»[٢]. وكما يقول جياني فاتيمو: «كل تجربة في الحقيقة هي تجربة تأويلية»[٣]، إذ «لا يوجد وقائع، وإنما تأويلات»[٤]...

(١) أبو نصر الفارابي، رسالة في العقل (ص٢٠)، وينظر: د. جعفر آل ياسين، الفارابي في حدوده ورسومه، عالم الكتب، ط١، ت١٤٠٥هـ-١٩٨٥م (ص٦٥٣).

(٢) براين فاي، الفلسفة المعاصرة للعلم الاجتماعي، أكسفورد: بلاكويل، ط١، ت١٩٩٦م (ص٧٣)، نقلاً عن: جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف/ الدار العربية للعلوم - ناشرون/ المركز الثقافي العربي، الجزائر/ لبنان - بيروت، المغرب - الدار البيضاء، ط١، ت١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م (ص٤١).

(٣) نقلاً عن محمد علي الزين، تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربيّ المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب/ بيروت - لبنان، ط١، ت ٢٠٠٢م (ص١٨).

(٤) المقولة لنيتشة، نقلاً عن: محمد علي الزين، تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربي المعاصر (ص١٨).

لذلك قيل: إن **ترميز**[١] الشيء مبنيٌّ على: موت الشيء ذاته، وعلى نقصانه. فالوعي عند الإنسان ليس شيئاً معلقاً في الهواء! بل يرتبط بما سماه **لاكان**: «وسيطاً بينه وبين العالم الخارجي»[٢].

***

(١) تحويل الشيء في الواقع إلى رمز. والرّمز: علامة يُتفق عليها؛ للدلالة على شيء أو فكرة ما، ويقابل الوجود الواقعي. والرمز يمتلك مركباً من المعاني المترابطة، وبهذا يُنظر إلى الرمز باعتباره يمتلك قيماً تختلف عن قيم أي شيء يرمز إليه كائناً ما كان. ينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي (ص٩٢) مصطلح (رمز) برقم (٤٩٧)، وإبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس - صفاقس، ط١، ت١٤٠٦هـ-١٩٨٦م (ص١٧١)، مصطلح (رمز).

(٢) نقلا عن د. عمر مهيبل، من النسق إلى الذات، الدار العربية للعلوم - ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان - بيروت/ الجزائر، ط١، ت ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، (ص٣٩، ٤٦).

اللغة تعترف بالجنون

• تعترف الثقافة العربية (عبر مؤسسة اللغة) بالجنون وجوداً يحتل أو يشغل حيزاً من الإدراك. إذ إن منح الشيء اسماً (= **الجنون**) وتسمية المصاب به (= **مجنوناً**) هو إدراك له، واعتراف **بهوية مستقلة**، تستدعي الإعلان عن وجوده بالتسمية، غير **أن تسمية الشيء هي في الحقيقة ترميز له**، كما أسلفنا!

إذا ما تتبعنا هذا الوضع اللغوي لنستمد منه استقبال اللغة للجنون وللمصاب به؛ فإننا نقف على **حقل**[1] لغوي واسع جدّاً،

(١) الحقل: حيزٌ ما يسري فيه منطق متناسق للأشياء. والدراسة تقصد به الحقل الدلالي أو المعجمي، وهو يُعنى بالكلمات التي تدل على قطاع واحد من الاهتمام، وقد عرفه د. أحمد مختار عمر؛ بأنه: «مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها»، علم الدلالة، عالم الكتب، لبنان - بيروت، ط٤، ت١٩٩٣م (ص٧٩).

وينظر: د. عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٦م (ص٩٩)، ود. خليل أحمد خليل، مفاتيح العلوم الإنسانية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط١، ت١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، (ص١٧١-١٧٢).

وغني جدّاً بمختلف الدّوال، وصلت بحسب إحصاء بعض المهتمين إلى نحو من ثمانين اسماً[١]، تحيل إلى صورٍ متباينة من الاضطراب والخلل والشذوذ، يمثلها مصطلح «**الجنون**» بوصفه «**عَلَماً**» يجمع صوراً مختلفة ومضطربة، متصلة ومنفصلة؛ لطائفة من الظواهر التي يصاب الإنسان والحيوان بها على حدّ سواء[٢]. وفي تعدد المفردات/ الأسماء دلالة أيضاً على الثراء المعرفي- الاجتماعي على صعيدي:

- المراقبة لمظاهر الاضطراب والانحراف عن السمت العام المألوف.

- القدرة على الكشف عن التباينات الدقيقة داخل الحقل الدلالي الواحد، وتوزيع هذا الوعي على أسماء، ينال كل منها وصفاً بحسب تصوّر الواضع/ المستخدم اللغوي= الثقافي.

• تلك الألفاظ المستعملة في هذا الحقل، والتي يُنظر إليها -في بعض الأحيان- بصفتها مترادفات تنوب في الدلالة على شيء واحد، وإن كان -بحسب ما يعتقد الباحث- لا مجال للقول بالتناوب[٣] إلا

---

(١) ينظر: د. أحمد خصخوصي، الحمق والجنون من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٣هـ-١٩٩٣م (ص٤٢-٥٥)، وقال: «وقع إحصاء الألفاظ الحاملة لمعاني الجنون في لسان العرب، فكان العدد قريباً من ثمانين لفظة. على أن هذا العدّ لم يدرك أوفى حدود الضبط» (ص٤٢)، الحاشية رقم (١).

(٢) ينظر: الكتاب (ص١٦٦-١٦٨).

(٣) القول بعدم وجود الترادف في اللغة العربية مذهب قديم، ومن أبرز القائلين به: أبو علي الفارسي، وثعلب، وأحمد بن فارس. وقصة الفارسي مع ابن خالويه=

مع الترخص! أو مع الاستعارة اللفظية[1]؛ إذ إن تأملها والتدقيق في

= في مجلس سيف الدولة -بهذا الشأن- مشهورة، ينظر: د. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، ط١٦، ت٢٠٠٤م (ص٢٩٥-٣٠١).

قال الجاحظ: «يقال: فلان أحمق، فإذا قالوا: مائق، فليس يريدون ذلك المعنى بعينه. وكذلك إذا قالوا: أنوكُ، وكذلك إذا قالوا: رقيعٌ، ويقولون: فلان سليم الصدر، ثم يقولون: عيي، ثم يقولون: أبله، وكذلك إذا قالوا: معتوه ومسلوس وأشباه ذلك. قال أبو عبيدة: يقال: للفارس شجاع، فإذا تقدم في ذلك قيل: بطل، فإذا تقدم شيئاً قيل: بُهمةٌ، فإذا صار إلى الغاية قيل: أَلَيَسٌ». البيان والتبيين (١/ ٢٥٠).

وقال هنريكوس اليسوعي: «إنَّ الترادف (التام) مما يستحيل كيانه، ويمتنع في الوضع إتيانه، إذ يترتب عليه أن تكون اللغة الواحدة لغتين، ويصير اللسان الفرد لسانين، والعربية داخلة في السُّنة التي ذكرناها، غير خارجة عن الطريقة التي أوردناها، وإنما هي بحر طافح بالألفاظ المتقاربة المعنى، زاخر بالكلم المتشاكلة في المدلول والمغزى؛ حتى يختلط على الكاتب أن يفرق بينها». فرائد اللغة: الجزء الأول في الفروق، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، لبنان - بيروت، ١٨٨٩م، مقدمة المؤلف (ص٥).

(١) أقصد بالاستعارة اللفظية: الاستعارة التي وصفها الإمام عبد القاهر الجرجاني بـ(الاستعارة غير المفيدة)؛ لأنها قصيرة الباع، قليلة الاتساع، حيث تكون بنقل الاسم عما وضع عليه اختصاصاً: «وموضع هذا الذي لا يفيد نقله، حيث يكون اختصاصُ الاسم بما وُضع له من طريق أريدَ به التوسُّع في أوضاع اللغة، والتنوُّق في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها، كوضعهم للعضو الواحد أسامِيَ كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان، نحوَ وضع «الشفة» للإنسان و«المشفَر» للبعير و«الجحفلة» للفرس، وما شاكل ذلك من فروق؛ ربما وجُدت في غير لغة العرب وربما لم توجد، فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها في غير الجنس الذي وُضِع له، فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجَازَ به موضعَه، كقول العجّاج: «وفَاحماً، ومَرسِناً مُسَرَّجَا» يعني: أنفاً يَبرُق كالسِّراج،=

كل دال يقود إلى الوقوف على رغبة في تلمس وصف يختلف شيئا قليلاً أو كثيراً عن الألفاظ الأخر؛ ومع هذا فهي جميعاً تشترك في دلالتها على الانفصال عن السمت الاجتماعي المألوف، حتى في الألفاظ الدالة على الجنون التي يوصف بها الحيوان، فإنه ينظر فيها إلى سلوكه المخالف لجماعته[١].

ولذلك يتشرب الاسم -بدرجات متفاوتة- معنى: العزل والنبذ، لأن الوعي اللغوي يتشكل ضمن «نظام اجتماعي». والظاهرة الاجتماعية تمتاز -كما يقرر علماء الاجتماع- «بأنها عامة ومنتشرة... وهي تظهر في صورة واحدة إلى حدّ ما، وتُكرَّر فترة طويلة من الزمن»[٢]. ونتيجة لذلك تأخذ «صفة **الجبر والإلزام**، أي أنها تفرض نفسها على الأفراد؛ ولا يسع هؤلاء أن يخالفوها، ومن يحاول أن **يخرج عمّا يرسمه** المجتمع من حدود وأوضاع، يقابل في هذا الصدد **بمقاومة وعنف**»[٣].

= والمَرسِنُ في الأصل للحيوان، لأنه الموضع الذي يقع عليه الرسن...».
الإمام عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، السعودية - جدّة، ط١، ت١٤١٢هـ-١٩٩١م (ص٣٠).

(١) مثل: «الثول» لجنون الشاء، و«الهيام» و«السعر» لجنون الإبل والنوق، و«الكَلب» لجنون الكلاب، وسوف تقف الدّراسة عليها بعد قليل.

(٢) د. مصطفى خشاب، علم الاجتماع ومدارسه: الكتاب الثاني: المدخل لعلم الاجتماع، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٦٧م، (٢/ ٩).

(٣) د. مصطفى خشاب، علم الاجتماع ومدارسه: الكتاب الثاني: المدخل لعلم الاجتماع (٢/ ٩-١٠).

هذا الوعي المتأثر **بالقوة الاجتماعية** يسقطه الإنسان على ما يدخل ضمن مداركه؛ مثل ما حوله من الموجودات في علاقاتها بأمثالها؛ سواء أكانت تلك الكائنات إنساناً أو حيواناً أو حتى جماداً[١]. إذ «تنطوي كل أفكار الصحة والمرض -سواء في ذلك المحدود منها أو الأكثر عمومية- على مفهوم السلوك السوي والملاءمة المعيارية»[٢]. ولذلك نجد الأسماء التي تقع ضمن حقل الجنون تطلق على الإنسان، وعلى الحيوان والنبات، وعلى الجماد **(ما لا حياة فيه)!**

---

(١) قال الجاحظ: «أما الجنون وذهاب العقل **فإنه يصيب كل شيء**، فمن ذلك ما يصيب الدّواب، فإن منها ما يُصرع كما يُصرع المجنون، والسائس من الدواب: الذَّاهب العقل!». كتاب الحيوان (٢/ ٢٢٣). وقد راقب العرب سلوك الحيوان؛ فما كان فيه اضطراب وانحراف عن السلوك المعتاد من جنسه، فهو مجنون، ومن ذلك ما لاحظه شهاب الدين النويري، من أن بعض الهررة إذا ولدت أكلت أولادها، وذلك -بحسب تعليله- «من جنون يعرض لها عند الولادة أو جوع». (نهاية الأرب في فنون الأدب (٩/ ١٧٣). وعلق أحمد بن فارس على قول الشاعر:

مثل النّعامة كانت وهي سالمةٌ أذنَاءَ حتّى زهاها الحَينُ والجُنُنُ

فقال: «**أراد الجنون**».

معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، لبنان - بيروت، ط١، ت١٣٩٩هـ-١٩٧٩م (١/ ٧٦)، مادة (أ.ذ.ن).

(٢) الرأي لديفيد ميكانيك، في كتابه علم الاجتماع الطبي:

Medical Sociology, 2ed Edition, The Free Press, 1968 PP.25-26

نقلاً عن: د. محمد علي محمد ود. علي عبد الرزاق ود. سناء الخولي ود. سامية محمد جابر، دراسات في علم الاجتماع الطبي، دار المعرفة الجامعية، مصر - الإسكندرية، ط١، ت٢٠٠٨م (ص١٥٠).

بالنظر إلى العلاقة بين أفرادها مع المجموع[1]..

• واللغة تقسم هذا الحقل الواسع، إلى مسردين عامين متجاورين، يقوم على كل مسرد منهما اسم **كالعلم الجامع** لما تحته من ألفاظ، وهذان الاسمان هما «**الجنون**» و«**الحمق**». حيث تفرق اللغة داخل هذا الحقل بين مظهرين للاختلاف؛ أحدهما: الاختلاف

(١) يمكن أن نسوق بعض نماذج لذلك؛ فمثلا: العرب تقول: شاة ثولاء، أي: مجنونة، والثَّولُ: جنون يصيب الشاة فلا تتبع الغنم، وتستدير في مرتعها. وتوصف الإبل بالهيام: وهو جنون يصيبها فيدع البعير أو الجمل المصاب سائر الإبل ويذهب على وجهه ولا يرعى. والرمل الهيام: الرمل الدقاق اليابس، الذي لا يستمسك ببعضه. ويقولون: بعير مذبوبٌ: أي: أصابه الذُّباب، وهو جنون يصيب الإبل خاصة، يجعله لا يقرّ في مكان واحد. ويقولون: جُنَّ النبات إذا التف وطال وخرج زهره، ونخلة مجنونة إذا فاقت غيرها وكانت في غاية الطول، وجنت الأرض إذا كانت ممرعة معشبة لم يرعها أحد كغيرها، وأرضٌ مُتَجَنِّنَةٌ: كثر عشبها حتّى ذهب كل مذهب. كما يقولون: نجاء أهوج، وغبار مجنون، وزمام سفيه (ينظر: محمد بن دريد، الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، لبنان - بيروت، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م (١/ ٤٢٥)، وإسماعيل الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٤/ ١٦٤٩)، ومحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، ط١، ت٢٠٠١م (٦/ ٢٤٧)، وعلي بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم (٧/ ٢١٧)، ومجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط (١/ ٥٤٤)، ومحمد ابن منظور، لسان العرب (١٢/ ٦٢٦-٦٢٧) و(١٣/ ٩٢-١٠١)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (٣٤/ ١٢٩)، و(٢/ ٤٢٣-٤٢٤)، المواد التالية: (ج.ن.ن)، و(ذ.ب.ب)، و(هـ.ي.م)، وأحمد بن علي المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، علقت عليه: تغريد الشيخ، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م (٢/ ٥١٢).

داخل النظام (الكساد/ الجهل- الحمق)، والآخر الاختلاف خارج النظام (الاستتار/ المغايرة/ الانقطاع - الجنون).

ومن خلال: هذا التقسيم إلى مسردين مستقلين، وبواسطة تلك الأسماء: صيغاً ودلالةً، تسرب مؤسسة اللغة، إلى المستخدمين: **معنى بل وعياً** له أثره البالغ في التعامل مع ظاهرتي «الجنون» و«الحمق»، اللتين تتجاوران تحت حقل واحد، ولكنهما تتفارقان لتعطيا المستخدم الانطباع بالاختلاف والتباين؛ منذ لحظة الوعي باللغة (الاتصال بالنظام الثقافي- الاجتماعي). ومن ثمّ تجعل هذا الاستعمال قالباً إدراكيّاً للفهم وموجهاً للنظر؛ **فالأسماء غير محايدة!** لأنها- كما يصفها بيير بورديو: «ملغومةٌ بنعوتٍ ضمنيّةٍ، والأفعال تنطوي على أوصافٍ صامتةٍ تميل إلى التأييد والاستنكار، وإلى إقرار الوجود والدوام، أو إلى الخلع والطعن ونزع الاعتبار»[1]...

***

(١) الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط٣، ٢٠٠٧م، (ص١٢-١٣).

اللغة تصنف الجنون

• تعطي اللغة مستعملها انطباعاً: أن عالم الجنون عالمٌ خفيٌّ ومغاير، يظهر ذلك من مركزية لفظة (**جنون - مجنون**) فيه، وهي ذات دلالة على الستر والتغطية والاحتجاب. إن الاشتقاق من المادة نفسها (ج ن ن) تقتضي الخفاء، ومن ثَمَّ الانفصال والاختلاف؛ لأنها ضد الظاهر والمستأنس المألوف! واللغة تنبه مستخدميها إلى تلك المفارقة المهمة! لذلك تستعمل اللغة هذه المادة في الدلالة على ما هو **منفصل بائن**؛ يقال: **جُنَّةٌ**، لما يستتر به[١]، ومنه قوله ﷺ: «**الصوم جُنَّةٌ**»[٢]، **والمِجَنُّ**: الترس يتقى به في الحرب[٣]، فكأنه يفصل بين الإنسان وبين ما يكره. ويقال: **الأجنان** أي: القبور، والمفرد منه: **جَنَن**، **والمجنون**: المقبور[٤]، ومنه قول الأعرابية: «**الله درّكَ من مجنونٍ**

(١) إسماعيل الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ٢٠٩٤)، مادة (ج.ن.ن).

(٢) أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرين، مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٧هـ-١٩٩٧م (١٣/ ٤٢٢) (١٥/ ٤٤٥)، برقم (٨٠٥٩، ٩٧١٤).

(٣) محمد بن منظور، لسان العرب (١٣) (ص٩٣-٩٤)، مادة (ج.ن.ن).

(٤) الخليل بن أحمد، معجم العين (بترتيب: أسعد الطيب) (١/ ٣٢٤)، ومحمد الأزهري، تهذيب اللغة (١٠/ ٢٦٨)، مادة (ج.ن.ن).

في جَنَنٍ»[١]. والمقابر عالم آخر غير العالم الذي يأوي إليه الأحياء ولو اندرج فيه أو اتصل به، كما أن المقبور ناء عن منازل الأحياء ولو كان أقرب ما يكون جدثاً منهم.

• وفي المقابل فإن المسرد الآخر الموازي لمسرد الجنون، تكون فيه لفظة الحمق لفظة مركزية، نجدها لا تشير للخفاء والغرابة والانقطاع، بقدر ما تشير لمسألة البوار والكساد. فعقل الأحمق موجود ولكنه بائر وكاسد، لا يجد رواجاً عند صاحبه، ولا يروج لديه به أسباب ظفر أو سلامة، مثل ما تقول العرب للسوق إذا كسدت: «**حمقت السوق**»[٢]، فإنّ هذا الوصف نفي لجودة الربح ولرواج البيع فيها؛ وليس نفياً لوجود السوق ولا لجودة البضاعة.

• وقد عبر أبو حامد الغزالي عن هذه المفارقة الدَّقيقة بين الجنون والحمق؛ فقال:

«أمّا الحمق فهو: فساد أول الرؤية فيما يؤدي إلى الغاية المطلوبة، حتى ينهج غير السبيل الموصل...

أما الجنون فهو: فساد التّخيّل في انتقاء ما ينبغي أن يؤثر حتى يتّجه إلى إيثار غير المؤثر. فالفاسد من الجنون غرضه، ومن الأحمق سلوكه؛ إذ غرض الأحمق كغرض العاقل ولا يعرف في

---

(١) عبد الحميد بن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، لبنان - بيروت، ط٢، ت١٤١٦هـ-١٩٩٦م (٧/ ٢٣٣).

(٢) إسماعيل الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (٤/ ١٤٦٥)، وعلي ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم (٣/ ٢٥)، مادة (ح.م.ق).

أول الأمر إلا بالسلوك إلى تحصيل الغرض. والجنون هو فساد الغرض؛ ولذلك يُعرف في أول الأمر...»[١].

فـ«الأحمق مقصوده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد؛ فلا تكون له رويّة صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض. أما المجنون فإنه يَختار ما لا ينبغي أن يُختار؛ فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسداً»[٢].

- ومعنى ذلك كما يشرحه ابن الجوزي:

«أنّ الحمق والتغفيل هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب، مع صحة المقصود. بخلاف الجنون فإنه عبارة عن خلل في الوسيلة والمقصود جميعاً. فمن ذلك: أن طائراً طار من أمير، فأمر أن يغلق باب المدينة! فمقصود هذا الرجل حفظ الطائر»[٣].

إن الأحمق لم يكن **في بينونة عن نظام العقل**، ولكنه عجز عن العمل بمنهجه الواضح؛ فهو رهن **خطأ بالغ** قاد إليه جهله وكساد عقله عنده؛ فهو يحتاج إلى موجّهٍ يوجهه، ومرشدٍ يذكّره بالوسائل المناسبة للوصول إلى مقصده الصحيح؛ ولذلك وصف الحمق

---

(١) أبو حامد الغزالي، ميزان العمل، تحقيق: د. سليمان دنيا، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط١، ت١٩٦٤م (ص٢٧٥-٢٧٦).

(٢) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، لبنان - بيروت، ط٢، ت١٤٠٢هـ-١٩٨٢م (٣/ ٥٤).

(٣) أخبار الحمقى والمغفلين، شرح: عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبنانية، ط١، ت١٤١٠هـ-١٩٩٠م (ص٢٣).

بـ«**الجهل**» في الأدبيات العربية[١]؛ فالحمق إذن «**وجود داخل النظام**».

وهذا بخلاف «**الجنون**» الذي هو وجودٌ «**خارج النظام**»، لأنه -كما أسلفنا- محجوب عنه ومنبت. ومن ثمَّ كان من أسماء الجنون «**معنون**»[٢]، ويستخدم كثيراً **كالإتباع**[٣] له، فيقال: «**مجنون معنون**»، والمعنون: كلّ محبوس[٤]، فهو: محبوس وممنوع من الاتصال والتفاعل مع من وما حوله، ومن الجذر نفسه **العنين** وهو: العاجز عن الاتصال الجنسي[٥]، فكأنّ اللغة تؤكد على صفة الانقطاع في المجنون.

---

(١) قال يوسف بن عبد البرّ القرطبي: «كانوا يعبّرون عن الأحمق بالجاهل، ومن ثم قالوا: غضب كسرى على عاقل فسجنه مع جاهل. يريدون سجنه مع أحمق». ينظر: بهجَة المجالس وأُنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس (٢/ ٥٤٥).

(٢) محيي الدين بن شرَف النوَوي، تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، د. ط، د. ت. (٣/ ٥٦)، قال أبو عمر بن العلاء: «يقال للمجنون معنون...».

(٣) الإتباع: «أن تتبع الكلمةُ الكلمةَ على وزنها أو رويِّها إشباعاً وتوكيداً»، أحمد بن فارس، الإتباع والمزاوجة، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي/ مكتبة المثنى، مصر - القاهرة/ العراق - بغداد، ط١، ت١٣٦٦هـ-١٩٤٧م (ص٨٨).

(٤) الصاحب إسماعيل بن عباد، المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف، العراق - بغداد، ط١، ت١٣٩٥هـ-١٩٧٥م (١/ ٨٣)، قال: «وكل معنون محبوس، وهو عنين عن القتال وغيره أيضاً».

(٥) محمد الجياني، إكمال الإعلام بتثليث الكلام، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي، جامعة أم القرى، السعودية - مكة، ط١، ت١٤٠٤هـ-١٩٨٤م (٢/ ٤٥٤)، وابن منظور، لسان العرب (١٣/ ٢٩١)، مادة (ع.ن.ن).

ولذلك يقال للرجل إذا **برئ من حماقة «أقبلَ»**[١]، كأنما كان مستدبراً الوجهة الصحيحة.

أما **المجنون إذا عقل** فيقال له: «**أَفرَق**» المجنون، ويقال: **ثاب** إليه عقله، **وراجعه** عقله[٢]، كأن المجنون كان في عدوةٍ قصيّةٍ وفرق إلى أخرى، أو في سبيل وانتقل إلى غيره، أو أن عقله كان عازباً عنه أو غائباً ثم رجع إليه.

• ومن دأبِ العرب قديماً وحديثاً تعزيم المجنون ببعض ما يحترمون ويجلُّون، وما يُعزّمُ به يحتّل -بالضرورة- مكانة عظيمة في الثقافة المعتمَدة لأنه ينتج قيمها أو يرسّخها؛ ومن ثَمَّ فهو العلاج الأنجع للجنون؛ لأنه يردّه إلى حياض ما يعتقدون من مُثُلٍ، أو يجلون من رموز.

ومن ثَمَّ فهو الأقدر على أن يُرجعه أو يُقبل به إلى الجادّة والصواب/ عالم العقل من جديد، وذلك إشارة إلى ما استقرّ في ذهنيتهم من كون الجنون خروجاً من العالم (المأنوس= الإنس) إلى عالم (غريب عجيب خفي= الجنّ)، وأنه تمردٌ على العقل لا يعترف بقيمه ولا أسبابه ولا مقاصده، بل هو عالم خاص بأسبابه ومقاصده وأوهامه..

---

(١) ينظر: إبراهيم اليازجي، نجعة الرائد وشرعة الوارد، مطبعة المعارف، مصر - القاهرة، ط١، ت١٩٠٤م (١/ ١١٣).

(٢) ينظر: إبراهيم اليازجي، نجعة الرائد وشرعة الوارد (١/ ١١٣).

ولذلك قرأنا في كتب التراث: «**لَو قُرِئَ** هَذَا الإِسنَادُ عَلَى مَجنُونٍ لَبَرَأَ»[١]، و«إسناد **لو قرئ على** مجنون لبرئ»[٢]، و«هذا [الإسناد] سعوط السَّبَليا، الذي إذا **سُعِط به** المجنون برِئ»[٣].

وروى أبو الفرج الأصفهاني عن إبراهيم بن سعد أنه قال: «إني لأروي لكثير ثلاثين قصيدة **لو رقي** بها مجنون لأفاق»[٤]. وقد وُصف كثير «بأنه أشعر أهل الإسلام»[٥]، وقيل عنه: «لم يُدرك أحدٌ في مدح الملوك ما أدرك كثير»[٢]، و«ما قصّد القصيد، ولا نعت الملوك مثل كثير»[٢]. وما دام شعره بهذه المنزلة، فهو جديرٌ **لمؤسسيتَّه ولنسقيته** بأن يعيد المجانين إلى حياض العقل (= المنهج/ النسق) الثقافي.

وهم بذلك يشيرون إلى «**المقدّم**» و«**المحترم**» بصفته قادراً بفضل قيمته وما يحمله من **برهان الحقيقة** على فرض سلطته ونظامه على المجنون عندما يجتمعان. وهذا ظاهر من لفظة «**العزائم**» حين يطلقونها

---

(١) محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، (١/ ٢٥)، برقم (٦٥).

(٢) يوسف قزغلي (سبط ابن الجوزي)، تذكرة الخواص (تذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة)، تحقيق: د. عامر النجار، مكتبة الثقافة الدينية، مصر - القاهرة، ط١، ت١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م (ص٦٤٩).

(٣) خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات (١٩/ ٢٥٢)، ترجمة: ابن طاهر الخزاعي، برقم (٧٤٨٣).

(٤) الأغاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٠٧هـ-١٩٨٩م (٩/ ٧-٨).

(٥) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني (٩) (ص٧-٩).

عـلى «الرُّقَى التي يعزم بها على الجن والأرواح»[١]، **فالعزيمة** فيها معنى الصرامة والجلد، و«**عزم**» عليه بكذا إذا حمله عليه أو أقسم أن يفعله[٢].

• أمـا الأحمق فلم يكونـوا يعزمون عليه بشيء لأنـه لم ينأ عن عالم العقل؛ حتى يروموا إرجاعه إليه، بل هو «**داخل نظام العقل**»، فلا يحتاج إلى عزيمة بما يُعظِّمُون، ولكنه يحتاج إلى غير ذلك؛ يحتاج إلى أن يحسـن تقديـر ما لديه من نعمة العقـل، ويتتبَّع نظم العلاقـات، ويتعلَّم كيف يسـبب الأسباب، ويفترض النتائج لمقدماته التي أسلفها وفق ما يجري عليـه المنطق والنظام، فمقاصد الأحمـق وأهدافه على الإجمال صحيحة لا يشـوبها ما يشـوب مقاصد الجنـون، ولكن الأحمق برغـم انتمائه إلى نظـام العقل، وبرغم معاشرته الطويلة لأهله، وبرغم انضوائه الطويل تحت مظلته، كاسـد العقل بليد الطبع ما يزال يضل في اختيار الوسائل المناسبة للوصول إلى مقاصده؛ فهو مثلاً يريد أن يغنم فيغرم، أو يصلح فيفسد، أو يفقد الشيء فيطلبه بأكثر مما يستحق من ثمن، فهو كـ«**البقلة الحمقاء**»، لأنها كما يقال: تنبت في مجاري السـيل[٣]، فكأنها تريد الحياة السـهلة والنضرة فتنبت في مجاري المـاء فيقتلعها، ويكون حتفها حيث أملـت البقـاء والنماء. وكلّ مـا تقدم من حيث الغايـة والمقصد شريف ومحـترم؛ فالغنم والإصـلاح والحياة النـضرة اللينـة لا ينكرها العقل،

(١) محمد الأزهري، تهذيب اللغة (٢/ ٩١). مادة (ع.ز.م).

(٢) ينظر: إسـماعيل الجوهري، الصحاح: تـاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٩٨٥)، مادة (ع.ز.م).

(٣) ينظر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (٢/ ٤٩٢)، مادة (ح.م.ق).

ولكنها بالنظر إلى الوسائل التي استخدمت حمق وضلالة، لأنها لا توصل إلى المراد؛ وإن أوصلت للمراد فمع رزية تفوت حلاوة الظفر، وما يُرتجى من النفع. ولذلك عاب العرب الحمق وعظموه بما لم يعظم الجنون- على حدّ تعبير المناوي[١]، وتواترت مروياتهم على وصفه بأنه الدَّاء الدّوي، الذي لا دواء له، حتى سرى مسرى القانون الثقافي أنّ:

لكلِّ داء دواء يستطبُّ به

إلا الحماقة أعيت من يداويها[٢]

وتداولوا في مروياتهم أن نبيَّ الله عيسى عليه السلام اعتذر عن مداواة الحمقى، في حين أنه كان يبرئ من الجنون بإذن الله[٣]. ومن ثَمَّ كان الوصف بالحمق في الثقافة العربية أكبر وأشنع من الوصف بالجنون! لما فيها من معنى النبز والعجز خلاف الوصف بالجنون فإن ما ستقر في النفس هو معنى الاختلاف والانقطاع. ويمكن لنا هنا أن نستعيد المروية المهمّة التالية:

«قال معلّم موسى الهادي له؛ في معرض التقريع له: يا أحمق! فهشم أنفه، فسأله أبوه المهدي عن السبب؛ فقال: قال لي: يا أحمق! ولو قال لي: يا مجنون لاحتملته»[٤].

---

(١) ينظر: محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير (١/ ٥٣١).

(٢) أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد (٢/ ٢٢٦)، وجار الله الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (٢/ ٣٩).

(٣) ينظر: محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير (١/ ٥٣١).

(٤) محمد الوطواط، غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، تصحيح: محمد الصباغ، مطبعة بولاق، مصر - القاهرة، ط١، ت١٢٨٤هـ (ص١١٦)،=

• تستعمل اللغة في الدلالة على الجنون على مستوى الفعل صيغةَ المبني للمجهول، أو «**ما لم يسمّ فاعله**» بحسب مصطلح متقدمي النحاة[1]، وتستخدم صيغة «**المفعول**» للدلالة على من اتصف به (جُنَّ - مجنون)، يقولون: جُنَّ فهو مجنون، وإذا قالوا: جُنَّ فمعنى قولهم: جُعل فيه الجنون، وإذا قيل: مجنون، أي: مفعول به الجنون، كما يقال: سُلَّ فهو مسلول، وزُكِم فهو مزكوم، وحُمَّ فهو محموم، وشَؤُمَ فهو مشؤُوم، ويَمُنَ فهو ميمون، قال أبو حيان التوحيدي:

«يقال: يَمُنَ فلانٌ عليهم وشَؤُمَ، وهو: ميمونٌ ومشؤوم؛ جُعل الفعل على طريق ما لم يسم فاعله، لأنه شيءٌ موصولٌ به من غير

= وانظر: تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م (ص١٥٤).

(١) مصطلح «ما لم يسم فاعله» مثل غيره من المصطلحات النحوية الأولى، تصدر عن إحاطة بعلوم العربية في صورتها الشاملة؛ مما يجعلها ذات خصوبة في الحقول البلاغية والدلالية والاجتماعية...إلخ أكثر من الصيغ الصناعية المتأخرة؛ فمصطلح (ما لم يسّم فاعله) يوفر فرصة أكبر للتأويل في حقول معرفية عديدة؛ بالنظر إلى مصطلح (نائب الفاعل) الذي ارتبط بالدرس النحوي وصناعة الإعراب.

ينظر مثلاً: الخليل بن أحمد، الجمل في النحو، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م (ص١١٨)، المبرد، المقتضب، تحقيق: د. محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، لبنان - بيروت، د. ط.ت.، (١/ ٩٣، ٩٥، ١٠٥، ١٧٣)، وابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم، سوريا - دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م (١/ ٢٨٩)، والخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ط٢، ت١٣٧١هـ-١٩٥٢م (٢/ ٢١٩).

إرادته واختياره. وإنما نزعوا إلى قولهم: فلان مشؤوم ليكون الفعل واقعاً به -أعني المكروه- وإلا فهو شائمٌ في الأصل»[١].

لهذا أيضا حكم جمهور النحاة واللغويين بشذوذ صيغة التعجب من الفعل (جُنَّ) ومن اسم المفعول (**مجنون**) على (**ما أجنّه**)؛ لأنَّ التعجب إنما يكونُ ممن له **قدرةُ الفعل**، أو بلغة النحاة من صيغة «**فعل الفاعل**» وليس من صيغة «**فعل المفعول**»[٢].

هاتان الصيغتان اللغويتان المتواطئتان على تقديم الجنون في **علاقته الإسنادية** من خلال موقع الفعل المبني للمجهول (**الذي لم يُسَمَّ فاعله**)، وتسمية المتصف به من خلال صيغة اسم المفعول (**الذي وقع عليه الفعل**)؛ توجّه المستخدم/ المتلقي لها إلى أن «الجنون» يأتي من **غير اكتساب حقيقي**، وأن «المجنون» **مكرهٌ على** ما هو فيه، وأنه بمنزلة **المحبوس** في ظلام الجنون...

• تمنع اللغة من أن يأتي من الجذر (ج.ن.ن) الدّال على وصف/ علّة الجنون[٣] صيغة صرفية للفعل المعلوم (**الذي سمّيَ فاعله**)، إلا

---

(١) الإمتاع والمؤانسة (١/ ٣٢٢).

(٢) ينظر: علي بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم (٦/ ٧٨٧) و(٧/ ٢١٥)، أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م (١/ ٦٤٤)، وبطرس البستاني: قطر المحيط، مكتبة إبراهيم صادر، لبنان - بيروت، ط١، ت١٨٦٩م (١/ ٣١٩).

(٣) ورد من الجذر (ج.ن.ن) صيغة صرفية للمعلوم لغير الدلالة على علة الجنون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] بمعنى: أظلم عليه عليه الليل.

إذا دلـت عـلى أن الجنـون «**مدعى مـن موقع العقل**»، مثـل صيغتي: (**تفعّـل= تجنَّنَ**)، و(**تفاعل= تجانن- تجـانَّ**)، وهاتان صيغتان تدلان عـلى تكلف الجنـون من غير حقيقـة، مثل: تعـالم، وتفانـن، وتفنّنَ، وتناعـس، وتنـاوم، وتكاسـل، وتطاول، أي: فعل بنفسـه ذلك على غـير حقيقـة[١]. فهذه الصيغة تثبـت لصاحبهـا إرادة الجنون وطلبه؛ لأنـه يفعل ذلك من موقـع الإرادة/ القصد= العقل! وإن وقع موقع الجنـون؛ فإنـه موقع مدعـى ادعاءً، وآنـذاك تمنحه اللغـة الحق في أن يستخدم صيغة الفعل المعلوم (**ما سمي فاعله**).

• يكثر في الاستخدام اللغوي الإسناد إلى الجنون بفعل «**نُسِبَ- رُمِيَ- اتهم- وصِف**»[٢]، وذلك يعني ارتباط الجنون بالآخر الذي له

(١) تجـان: الرجـل إذا تكلـف الجنـون وليـس بمجنـون. ينظر: الحسـن بـن حبيب النيسـابوري، عقلاء المجانين (ص٤٢-٤٣)، ومرتـضى الزبيدي، تاج العروس (٣٤/ ٣٦٩)، مادة (ج.ن.ن).

(٢) يمكن تتبع ذلك في عدد من الأساليب، ينظر مثلاً:

نسب إلى: «أول من نسب إلى الجنون في الإسلام...»، «اشترط المتنبي على سيف الدولـة أول اتصالـه بـه: أنه إذا أنشـده مديحه لا ينشـده إلا وهو قاعـد؛ وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه، فنسب إلى الجنون...»، «... حتى يُنسبَ صاحبه إلى الجنون.»، «لم يحتج فرعون عليه بأكثر من أن نسـبه إلى الجنون!»، «حتى كان يُنسب إلى الجنون مرة وإلى الكفر مرّة...»، «ينسبهم العامة إلى الجنون».

وصف بـ: «وإنما وصفوه بالجنون»، «فوصف بالجنون».

رمي بـ: «كان فينا جماعـةٌ رموا بالجنـون»، «ورميهم إياه بالمجنـون»، «كان يرمى بالجنـون»، «رماه بالجنون»، «وتعريف لمن رماه بالجنـون بأن ذلك كذب وخطأ»، «فرموها عنده بالجنون»، «حدثنا الأصمعي قال: سألت أعرابياً ... فقال: عن أيهم تسألني؟ فقد كان فينا جماعةٌ رموا بالجنون...»، «كان [السيرافي] يُرمى بالجنون». =

الحق في التصنيف، وأنّ ظهور الجنون/ المجنون مشروط من خلال

= اتهم بـ: «صَرَّحُوا لَهُ بِالتَّكذِيبِ وَاتَّهَمُوهُ بِالجُنُونِ».
راجع النصوص على الترتيب: أبو القاسم النيسابوري، عقلاء المجانين (ص٩٤)، الخبر برقم (١٦٢)، ويوسف البديعي الدمشقي، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، تحقيق: مصطفى السقا ومحمد شتا وعبده زيادة، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط٣، ١٩٩٤م (ص٧١)، ومحمد بن جعفر الخرائطي، اعتلال القلوب (٢/ ٣١٨)، وأبو جعفر النحاس، معاني القرآن الكريم، تحقيق: محمد علي الصابوني، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ومركز إحياء التراث الإسلامي، السعودية - مكة المكرمة، ط١، ت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م (٥/ ٧٣)، وسراج الدين بن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٩هـ-١٩٩٨م (١١/ ٤٣٠)، وإسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، السعوديّة - الرياض، ط٢، ت١٤٢٠هـ-١٩٩٩م (٧/ ٤٦٧)، أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني (٢/ ٨)، وخليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م (٢١/ ٢٤٩)، ابن منظور، لسان العرب (١/ ٩٩ مادة (سوأ)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (١/ ٣٩ مادة (سوأ)، أبو الليث نصر السمرقندي، تفسير بحر العلوم، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود ود. زكريا النوتي، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ١٤١٣ هـ-١٩٩٣م (٣/ ٦١٣)، ومنصور السمعاني، تفسير القرآن الكريم، تحقيق: ياسر إبراهيم وغنيم عباس، دار الوطن، السعودية - الرياض، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م (٢/ ٢٣٨)، ونظام الدين النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: زكريا عميران، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م (٥/ ٢٦٧)، و(٦/ ١٠٤)، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط (٨/ ٣٥)، ١٧٥).

وجـود ذلك الآخر. فهنالك مرجعية ذات سـطوة يتوافر لها الحق في الدفع بالظواهر أو الأفراد إلى خارج النظام- إلى عالم الجنون.

إنّ الجنون -**في وعي اللغة**- إذاً غير قادر على إحداث **فعل الهوية!** وإنّـما تحصل له هويته من موقع آخر هـو: موقع العقل/ النظام، وقد نفهـم ذلك أكثر لـو عرفنا أن «**الفعل**» موقع ثقـافي لا يمنح إلا وفق اشتراطات محددة؛ ومن ثمّ فإنه يمنح للعقلاء ويسلب من المجانين.

ولعـلَّ في هـذا ما يكشـف عن **أن وجـود الجنون بصفتـه وجوداً تاليـاً اقترن بالحاجة إليه لصالح الوجود المعياري** - العقل[1]، وينشـأ أو يسـتغل مـن قبله؛ حتى وإنّ **تكلّـفَ فردٌ (ما) الجنـون** فإن ادعاءه للجنـون لا يكون إلا من خلال موقع العقل (**موقع الإرادة: تجنَّنَ - تجانَّ**)، فتحقق الوجود للجنون يأتي دائماً من خارجه، سواء أكان من خلال: النسبة إليه، أو من خلال ادعائه...

• ذكـرت **الدكتـورة رجـاء بـن سـلامة** أنه قـد «أوجـد عقلاء المجانـين مفعولاً لفعل «**جُنَّ**» يتعدّى إليـه بحرف «**عن**»[2]. لكنها لم تحاول الكشف عمّا وراء الاستخدام من الدّلالة!

و**الأمانـة العلمية** تقتضي منّا -هنا- تصحيح تلك الملحوظة التي

---

(١) الحاجـة إلى الجنـون قد تكون حاجة ضرورية؛ من حيـث إن الجنون المقابل الذي يستوعب ما هو خارج العقل، فلا نظام دون إثبات ونفي.

(٢) العشـق والكتابة: قراءة في الموروث، منشـورات الجمـل، ألمانيا - كولونيا، ط١، ت٢٠٠٣م، (ص٥٢١)، وقد توقفت عند هذه الملاحظة دون أن تحاول الكشف عن دلالاتها وما وراءها.

ذكرتها الدكتورة رجاء فننبه إلى أن **التعدية بحرف «عن» مستعمل في اللغة من قبل**. ومن ذلك ما رواه ابن الأعرابي عن العرب: «جن عين أي: ما جُنَّ عِن العينِ فلم تره». ومنه قول قتادة: «قال قتادة: جنّ [الشيطان] عن طاعة ربه»، وقول سفيان بن عيينة: «لقد أدركنا الناس وهم إذا بلغ أحدهم الأربعين سنة جن عن معارفه، وصار كأنه مختلط العقل من شدة تأهبه للموت»[1].

ويمكن القول: إنّ الفئة التي عرفت في التراث بـ«**عقلاء المجانين**» قد طورت استخداما لغويّا جديداً (صيغة لغوية تجمع بين الإثبات والنفي)، لصرف الجنون عن شيء بحرف الجر «**عن**»، للدلالة على الانقطاع عن الشيء، والاحتجاب عنه، وتثبته بالنفي (**ما- لا**) بعد ذلك. وهي صيغة: «**جننتُ عن ... لا عن ...**»، و«**جننت عن... وما جننت عن...**»، وما شابهها. وذلك لتوجيه الجنون الوجهة التي يريدها المجنون! في مقابل الصيغة الرسمية التي تنسب الفرد إلى الجنون لإلغائه ونفيه.

---

(١) ينظر: محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق وتخريج: محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ت١٤٢٠ هـ-٢٠٠٠ م (١/ ٥٠٥)، برقم (٦٩٣)، وأحمد الثعلبي، الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، تحقيق: أبي محمد عاشور، مراجعة وتدقيق: أ. نظير الساعدي، دار أحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م (٦/ ١٧٦)، وعبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى (طبقات الشعراني)، المكتبة التوفيقية، مصر - القاهرة (ص٩٧)، ترجمة رقم (٩٥)، ومحمد بن منظور، لسان العرب (١٣/ ٩٣)، مادة (ج.ن.ن).

وهذا يكشف عن محاولة تلك **الطائفة المُشكِلة** من المجانين في التراث انتزاع حقها؛ بتوجيه تجربتها في الجنون نحو **التصنيف** الذي **تختاره هي**، وذلك في مواجهة فعل «**التصنيف الرسمي**» الصادر من الآخر- **النظام**؛ ما يعني سعي **هذه الفئة لامتلاك هويتها! وقدرتها على إنتاج الخطاب!**

- «**قال ذو النون: قلت: لغليِّم: لِمَ سُمّيتَ مجنوناً؟! قال: أنا مجنونٌ عن معصيته، لا عن معرفته!**»[١].

- «**قال رجل لعليان المجنون: أجننتَ؟ قال: أما عن الغفلة فنعم، وعن المعرفة فلا. قلتُ: كيف حالك مع المولى؟ قال: ما جفوته مذ عرفته، قال: قلتُ: ومذ كم عرفتَه؟ قال: مذ جعل اسمي في المجانين**»[٢].

فهوية «الجنون» هنا إذن تخضع لاشتراطات المجنون نفسه! وهي مختلفة عن هوية الجنون كما يقدّمها الآخر- العاقل. وهذا ما يجعل **الجنون** يستحق عناية خاصة: تدرسه من حيث: تحقق شروط إنتاج الخطاب، وكيفية تداوله، وقدرته على امتلاك صوت خاص به. وهو ما نطمح لاستكمال الوقوف عليه في بحث قادم- إن شاء الله تعالى- يُعنى بما أسميناه في مقدّمة الدّراسة بـ«**استعادة خطاب الجنون**»[٣].

---

(١) أبو القاسم النيسابوري، عقلاء المجانين (ص٣٤٢)، برقم: ٥٩٩).

(٢) النيسابوري، عقلاء المجانين (ص١٦٢)، برقم: ٢٩٠ .

(٣) ينظر: مقدمة الكتاب (ص٣٢ وما بعدها).

• وهنا يمكن أن نبدي **ملحوظةً أخرى** بإزاء ما تقدم ذكره؛ من كـون: تحقق **الوجـود للجنون** يأتي دائماً من خارجه: سـواء أكان من خلال **النسـبة إليه**، أو من خلال **ادعائه**. وهي: أن انتزاع التأكيد **على الهوية** لـدى طائفة «**عقـلاء المجانين**»، يأتي من الموقـع الثاني للعقل؛ أي: مـن خلال: **الجنون المدّعى (تجانّ- تجنَن)، فالمؤسسـة اللغوية لا تعطينا خياراً ثالثاً**.. ويمكن أن نسـتأنس هنا بما رواه النيسـابوري في كتابه «عقلاء المجانين»:

> **كان أبان بن سـيار الرَّقيُّ رئيس القراء والفقراء بالرّقة، وكان مع ذلـك يرجـع إلى علم؛ فأكل الذئـبُ بُنَيّاً لـه وكان واحِدَه، وكان مشغوفاً به، فلم يتمالك، وهام على وجهه، فغاب مليّاً ثم عاد وقد برم بالناس؛. فجَنَّنَ نفسَـه، وجعل لا تطمئن به الدَّار ولا يسـتقر به القرار، فخُبِّرتُ بشـأنه فأتيته في أصحاب لي، فألفيته في الجامع يكلـم بعض الأسـاطين، فقلت: يا أبـان، أجننتَ؟! قـال: نعم، عندك وعند أضرابك. فقلت: وكيف؟! فأنشأ يقول:**
>
> **جُنِنتُ عن عقلي لديكم وما**
> **قلبـي واللّه بمجنـون**
> **أَجَـنُّ منـي وإلـهِ الـورى**
> **من اشترى دنياه بالدين»**[1]

فالثقافـة إذن تسـتجيب للجنـون مـن موقع لغوي غنـي، يوجّه

(١) (ص٦٨)، برقم (٩٧).

المستخدم والمتلقي إلى: أن الجنون يأتي من غير اكتساب حقيقي، وأن المجنون مكرهٌ على ما هو فيه، وأنه بمنزلة المحبوس في ظلام الجنون. ومن ثمّ تدفع اللغة نفسها -من خلال أنظمتها وصيغها- بالمسؤولية عن كاهله.

ولا تتيح اللغة للمجنون امتلاك هويته، وتمنح هذا الحق للآخر/ العاقل، لكنها تعطي الحق في الانتساب إلى الجنون شريطة أن يكون ذلك الانتساب مدعى من موقع العقل. ولا يمكن للغة أن تتصور خلاف ذلك فتجعل من إسناد الفعل **جن** إلى الفاعل المعلوم للدلالة على علّة «**الجنون**».

كما تفصل اللغة بين مسردين متجاورين، هما: مسرد الجنون، ومسرد الحمق، إذ تجعل من الجنون وما تحته احتجاباً وانقطاعا عن النظام السائد (العقل)، في الوقت الذي يكون فيه الحمق وما تحته كساداً وعجزاً عن العمل بما في ذلك النظام.

واللغة بتقسيماتها وصيغها تحمل في معيتها **كوناً دلاليّاً**؛ و«تنقل إلى الإنسان نسقاً جاهزاً من القيم»[1]، لأن اللغة أكثر من أن تكون مجرد وسيلة اتصال؛ إذ هي بنية تحتية تحدد وجود الأفراد وطريقة

(١) إبراهيم الحيدري: النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، مكتبة الساقي، لبنان - بيروت، ط١، ٢٠٠٣م (ص٢٨٢)، وينظر: الطاهر لبيب: سوسيولوجيا الغزل العربي: الشعر العذري نموذجاً، ترجمة: مصطفى المسناوي، لبنان - بيروت، ط!، ١٩٨٨م (ص٦٣).

سلوكهم، وتشرط فكرهم ورؤيتهم للعالم -كما أسلفنا[١]-؛ فاللغة تجبر على القول، وتسرب مع صيغها اللفظية وجهة نظرها، ولذلك حكم **رولان بارت** على اللغة بأنها: «فاشية الطبع؛ ذاك أن جوهر الفاشية ليس هو أن تمنعك من القول، بل أن تجبرك على القول!»[٢].

(١) ينظر: عبد السلام بنعبد العالي، بين بين، دار توبقال للنشر، المغرب - الدار البيضاء، ط١، ت١٩٩٦م (ص٢٤-٢٥).

(٢) العبارة منسوبة إلى رولان بارت، نقلاً عن د. محمد سبيلا، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان - بيروت، ط١، ت٢٠٠٩م (ص٩٢).

obeikandl.com

obeikandl.com